الصور والمحسنات في أدب الوصايا

الباحث/ محمد خليفة محمد الكو

مدخل :

مما لا شك فيه أن النقاد القدامى اهتموا اهتماما كبيرا بالصورة الفنية ، وقد تعددت الآراء حول مفهومها عند كثير الباحثين بين مختصر ومطيل ، وواضح وغامض ، وقد تباينت تعريفاتها حسب العصور الأدبية وحسب الأشخاص ويرجع هذا الإتلاف والتباعد إلى قدم الصورة نفسها فهي قديمة قدم الأدب العربي خلقت معه ، وعاشت فيه ، ويمكن القول أن أغلب المفاهيم تكاد تصب في مفهوم واحد للصورة وهو : تصوير مشاعر الإنسان ، وإخراجها في أسلوب رائع وهو من ذلك يخرج ما يجول في خاطره من وصف أو تصوير يثير أنتباه المتلقي .

يقول إبراهيم غنيم : « عند اكتمال الصورة يجد السامع أو القارئ ما يشده إليها من جودة التصوير للحدث المعبر عنه ..... مما يجعل الصورة تطرب النفوس ، وتهز الأعطاف ، وتدعو إلى التعجب ، وذلك لما تحويه من خيال بديع وقدرة على نقل الأفكار والعواطف ، والجمع بين المتباعدات » [1].

وقد كانت الصورة منذ القديم مثار اهتمام الأدباء والنقاد والشعراء ، فقد كان العربي ينزع نزعه حسية في فهم الجمال وتصويره ، وهذه النزعة الحسية كانت تفرض نفسها على الصورة الفنية ، وهي التي بدورها تكون تجربة معاشة على أرض الواقع ، وحين نعثر على صورة فإننا نعثر من خلالها على تجربه معاشه حقا ، مما يوضح إنه قد رأى أو أدرك ما استطاع أن يتخيله وحين يصور المبدع فإنه ينطلق من

[1] -ينظر الصورة الفنية في الشعر العربي – مثال ونقد – إبراهيم غنيم – نشر الشركة العربية للنشر والتوزيع – ط١ – القاهرة – ١٩٩٦ – ص ١٩

خلال حادثة معينة جياشة ، أو منظر بديع ، أو أحساس مرهف ، أو فكرة مـــا ، وفـــي كل حالة لا يصوغ الصورة من فراغ » [1].

والصورة التي نقصدها في هذا الفصل هي الصورة بمختلف أنماطها والتي لا يمكن أن تؤدي دورها في إثارة المتلقي وتفاعله معها مالم تكن صـــادرة عـــن انفعـــال وجداني وتجربة وخبرة للموصي مع قدرة فنية وسيتم توزيع هذه الـــصورة وفـــق مـــا سيأتي.

[1] ينظر – الصورة في الشعر مسلم بن الوليد – عبد الله التطاوي – نشر دار الثقافة للنشر والتوزيع – القاهرة – ١٩٩٧ – ص ٢٦

أولا : التشبيـــــه :

من الوسائل الفنية البيانية التي لا تكاد كل وصية من الوصايا العربية جاهليـة كانت أم إسلامية لا تخلو منها الصورة التشبيهية أو التشبيه الذي يُعد من أكثر الـصورة البيانية استخداماً في الأدب العربي عامةً شعره ونثره ، حيث كانت هذه الصور تنتـزع من البيئة لتكون أداة بين يدي المبدع يعبر بها عما يجول في نفـسه أو فـي بيئتـه أو ليعمق بها فكرته ويصل بها إلى هدفه .

وقد اهتم النقاد العرب قديماً بالتشبيه ، حيث تناولوه في مؤلفاتهم وأفـردوا لـه أبواباً وفصولاً ، وبذلك نلمس أن التشبيه كان محل اتفاق بين كل النقاد على أنه أفـضل الأدوات البيانية التي ترتقي بالعمل الأدبي ، التي تعد الوصايا مـن عناصـره ، ومـن النقاد الذين تطرقوا إلى التشبيه وأفردوا له مكانة واسعة في مؤلفـاتهم ، نجـد الأديـب والناقد الكبير ابن رشيق الذي يعرّف التشبيه بأنه : " هو صفة الـشيء بمـا قاربـه ، وشاكله من جهة واحدة أو من جهات كثيرة لا من جميع جهاته " [1].

والتشبيه علاقة مقاربة بين طرفين ، لاتحادهما في صـفة أو مجموعـة مـن الصفات والأحوال ، ولذا فإن العلاقة التي تربط بين طرفيه – حسب هـذا التـصور – هي علاقة مقاربة وليس علاقة تفاعل أو امتزاج ، بمعنى أن التشبيه ينبئ عن استقلالية كل طرفيه وتمايزها ، حتى وإن تعددت صفاتهما المشتركة ، بحيث لا يفنيان في إطـار وحدة دلالية جديدة ذات كينونة خاصة ، وبحيث لا تحدث مجاوزة مفرطة فـي دلالـة الألفاظ التي تشكل طرفي التشبيه للانتقال من معنى إلى معنى آخر يحل محله وينـوب منابه ، كما هو الحال في الاستعارة ، وأداة التشبيه هي المظهر العملـي لهـذا التمـايز وعدم التفاعل بين طرفيه ، « فالأداة في مثل هذا التصور بمثابة الحاجز المنطقي الـذي يفصل بين الطرفين المقارنين ، ويحفظ لهما صفاتهما الذاتية المستقلة ، وحتى لو حذفت الأداة – على سبيل الاختصار والإيجاز ، أو على سبيل الإيهام والمبالغة – فإن المبـدأ الأساس يظل قائماً ، ويظل طرفا التشبيه متمايزين تماماً ، لا تتداخل حدودهما العمليـة والمنطقية ، لأن نية وضع الأداة والفصل بين الطرفين لا تنفصل بحـال عـن جـوهر

[1] – العمدة في محاسن الشعر وآدابه : ابن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، لبنان ، دار الجيـل ، ج٤ ، ١٩٧٢م ، ص٢٨٦ .

المقارنة التي يقوم بها مفهوم التشبيه »[١] ، على أن محاولة الفصل بين عناصر الصورة التشبيهية أيا كان بناؤها اللغوي يؤثر بلا شك في استشفاف الدلالات والإيحاءات الفنية التي تنطوي عليها ، بحيث لا يتصور بحال من الأحوال النظر إلى أي من هذه العناصر بمعزل عن الآخر ، فالصورة التشبيهية إبداع متكامل لا يستشف عطاؤه الفني إلا من خلال انصهار عناصره وفنائها في إطار وحدة دلالية جديدة يتخلف من تفاعلها صورة متكاملة تزخر بفيض من الدلالات والإيحاءات التي تتسق مع تجربة المبدع ورؤيته الشعورية والنفسية . هذا إلى جانب أن « أداة التشبيه إن وجدت ، فإنها تقوم بالربط بين الطرفين ، وإن حُذفت فإنها تقوم بدورها على مستوى الغياب ، وهو الحث على تعانق الطرفين معاً » [٢].

ومن الوصايا التي كان التشبيه حاضراً فيها وصية أكثم بن صيفي لبنيه حيث يقول : " ..... ألزموا النساء المهانة ، ولنعم لهو الحرة المغزل ، وأحمق الحمق الفجور ، وحيلة من لا حيلة له الصبر ، إن كنت نافعي فورِّ عني عينك ، إن تغش ترى ما لم تر ، قد أقر صامت ، المكثار كحاطب الليل ، ..... لا تبولوا على أكمة ، ولا تفشوا سراً إلى أمة من لم يرجع إلا ما هو مستوجب له كان قمناً أن يدرك حاجته ، ولا تمنعكم مساوئ رجل من ذكر محاسنه " [٣].

فأكثم ابن صيفي اعتمد على التشبيه في قوله – المكثار كحاطب الليل – ووجه الشبه واضح يتمثل في عدم التركيز والعشوائية ، وهذا ما يلاحظ على أولئك كثيرو الكلام.

ومن التشبيهات الجاهلية ما ورد في وصية عمر بن الغوث موجهاً أولاده حيث قال : " ..... ولا تكونوا كالجراد يأكل ما وجد ويأكله ما وجده " [٤].

اعتمد ابن الغوث في نصيحته لأبنائه على التشبيه في قوله – لا تكونوا كالجراد وذلك في نهيهم على التكالب في الحياة الدنيا فعليهم أن يكونوا مقتنعين بما كتبه

---

[١]– الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، جابر عصفور ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١٩٧٣،ص١٩٠ .

[٢]– شعر عمر بن الغارض ، (دراسة أسلوبية) رمضان صادق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص١٥٧ .

[٣]– المعمرون والوصايا : ص١٤–١٥ .

[٤]– المعمرون والوصايا : مرجع سابق ، ص١٢٥ .

الله وقدره لهم والدليل على ذلك أنه سبق هذا التشبيه بنصيحته لهم بقوله – فأرعوا مرعى الضب العور ، يرى حجره ، ويعرف قدره .

وهذه نصيحة تندرج من النصائح التربوية التي اشتملت على مبادئ وقيم وكان التشبيه جزءاً من مكوناتها ، وبالرغم أن هذا التشبيه كان تقليدياً ومنتزعاً من البيئة الجاهلية ، إلا أنه عمّق الفكرة وحقّق الهدف من الوصية .

ومن الوصايا التي حملت التشبيهات المتأثرة بالإسلام قول الإمام أبي حنيفة لإبراهيم بن أدهم : " فليكن العمل من بالك ، فإنه رأس العبادة وقوام الدين " [1].

فقد شبه العبادة بالإنسان وشبه الدين بخيمة وهذه التشبيهات تحمل طابعاً إسلامياً يكون من السهولة معرفة وجه الشبه فيها ، وكذلك نجد هذا في قول أبي بكر الخوارزمي : " من قاتل عساكر الإقبال في أيام كرهاً هزمته " [2]، وهنا يشبه الإقبال بالعساكر ، أو شبه الإقبال بقائد له عساكر ، ونهى عن مقاتلتها ، وهدف الموصي هنا عدم التصدي للرؤساء الذين تقبل عليهم الأيام ويساندهم الحظ .

ومن الوصايا التي اشتملت على وصايا جميلة وصية : حصن بن حذيفة لبنيه والتي سبق الإشارة إليها ، حيث يقول : " اسمعوا مني ما أوصيكم به لا يتكل آخركم على أولكم فإنما يدرك الآخر ما أدركه الأول ..... ثم قولوا الصدق ، فإنه لا خير في الكذب وصونوا الخيل فإنها حصون الرجال ، واطلبوا الرماح فإنها قرون الخيل " [3].

تبدو صورة التشبيه واضحة في وصية حصن بن حذيفة ، حيث أوصى بصون الخيل وتجهيز الرماح أو صناعتها ، وقد شبهها بقرون الخيل ، وهذا تشبيه جميل منتزع من البيئة العربية ، حيث تمثل الرماح قروناً للخيل ، فكأنما الخيل بالرماح تشبه الوعول والأيائل ذات القرون التي تدافع بها عن نفسها ، كما نلحظ قبل هذا التشبيه تشبيه آخر شبه فيه الخيل وكأنها حصون للرجال وقد حذف حصن بن حذيفة أدوات التشبيه ووجه الشبه في وصيته وهذا ما يزيد التشبيه جمالاً حيث يكتشف المتتبع لهذه الوصية أداة التشبيه ووجه الشبه بكل سهولة ويسر .

---

[1] – البداية والنهاية : ج١٠ ، ص١٢٧ .

[2] – كتاب رسائل الخوارزمي : محمد بن العباس الخوارزمي ،تحقيق محمد قطعه العدوي ، مطبعة عبد الرحمن رشدي ،القاهرة ،ط١، ١٢٩٧هـ ، ص٩٨ .

[3] – دراسات في الأدب الجاهلي : مرجع سابق ، ص ٣٦٩.

وإذا انتقلنا إلى العصر الأموي ، نجد التشبيه حاضراً في وصايا أهل هذا العصر ، ومن ذلك وصية الخليفة معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد التي تندرج ، تحت الوصايا السياسية حيث يقول : " ..... وأني لست أخاف عليك من قريش إلا الحسين بن علي وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم ، فأما الحسين ، فإن له رحماً وحقاً عظيماً ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه ، فإني لو أوتي به عفوت عنه ، وأما ابن عمر ، فيقيده إيمانه ، وأما ابن الزبير فضب خب يجثم لك جثوم الأسد ، ويروغ روغان الثعلب ، فإن أمكنته الفرصة وثب ، فإن فعل فقدرت عليه أن تقطعه إرباً إرباً فافعل " [١].

هذه الوصية تظهر جانباً من أمر سياسة معاوية بن أبي سفيان ، وقد اعتمدت على أساليب عديدة خاصةً أسلوب التحذير من بعض الشخصيات السياسية التي قد تشكل خطراً على ابنه يزيد والذي كان يعده للخلافة من بعده ، فابن الزبير في نظر معاوية كالضب والثعلب في المكر والخداع والغش والخبث ، ولعل تشبيه ابن الزبير بالضب والثعلب يوضح جلياً مدى خطورة الرجل على يزيد فهو يتربص بالخلافة كما يتربص الأسد بفريسته ، والملاحظ على هذا التشبيه أنه من التشبيهات التقليدية التي كثر استخدامها في تلك الحقبة ، حيث يمثل الثعلب الخديعة والمكر ويمثل الأسد اليقظة والشجاعة وسرعة الانقضاض ، ولو اتجهنا إلى العصر العباسي ، وفي إطار وصايا الخلفاء أيضا نجد الخليفة المأمون أشهر خلفاء بني العباس يوصي أبنائه ويرى الأخوة في ثلاثة أقسام ، فأخ كالغذاء وأخ كالدواء وآخرهم أخ كالداء ، لقد جاء في وصيته قوله : " ..... الإخوان ثلاث طبقات أخ كالغذاء الذي يحتاج إليه في كل يوم وفي كل وقت وهو الأخ العاقل الأديب ، وأخ كالدواء وتحتاج إليه عند الداء وهو الأخ الأريب ، وأخ كالداء الذي لا تحتاج إليه وهو الأحمق " [٢].

ومن الوصايا القائمة على توظيف ضروب البيان وصية الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري والتي منها يقول : " ..... كمثل قوم سفر نبا بهم منزل جديد فأموا منزلاً خصيباً ، وجناباً مريعاً فاحتملوا وعثاء

[١]– التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا : للمبرد ، تحقيق : إبراهيم محمد حسن ، القاهرة ، دار النهضة ، مصر للطباعة ، ج١ ، ص١٣٩–١٤٠ .

[٢]– تحفة الوزراء : ص٥٩

الطريق ، وخراق الصديق وخشونة السفر ، وحبشوبة المطعم ، ليأتوا سعة دارهم ، ومنـــزل قرارهم ، فليس يجدون لشيء من ذلك ألماً ، ولا يرون نفقة مغرماً ..... ومثل مـــن اغتـــر بها كمثل قوم كانوا بمنزل خصيب ، فنبا بهم إلى منزل جديت فليس شيء أكـــره إلـــيهم ولا أقطع عندهم من مفارقة ما كانوا فيه إلى ما يهجمون عليه ويصيرون إليه "[1] .

فالتشبيه هنا صورة بلاغية مجراه بتشبيه وهو قول موسوم بالتعميم منطبـــق علـــى الإنسان مكتسب خصائص الحِكم والمثال وهو حكاية مثيرة يرويها راوٍ عليم ، وقد جمع هذا كله في رؤيته للإنسان الذي يغتر بالدنيا فيقبل عليها منشغلاً عن الآخرة بالشهوات .

ومن الوصايا التي اشتملت على ضروب البيان خاصة التشبيه وصـــية الأفـــوه الأودى قوله : " ..... ولا تأمنوا على أحسابكم السفهاء ، ولا تـــشركوهم فـــي سركم ، فإنهم كالضأن في رعيتها ، كلامهم ذعر ، وفعلهم عسر " [2].

هنا يحذر الأفوه أبنائه من السفهاء الذين شبههم بالضأن فهي لا طريـــق ثابـــت لها ومسلك في الرعي فهي عشوائية الحركة وغير ثابتة فـــي تحركاتهـــا حالهـــا مثـــل السفهاء الذين لا مبدأ لديهم فلا يعتمد عليهم الإنسان فلا نفع يأتي منهم ، وهـــذا التـــشبيه أيضا من التشبيهات المنتزعة من البيئة العربيـــة أورده الموصـــي ، لتعميـــق الفكـــرة وتثبيتها من خلال هذا التحذير لأبنائه .

ويطالعنا أحد الحكماء يوصي ابنه قائلاً : " يا بني أن سرعة ائـــتلاف قلـــوب الأبرار كسرعة اختلاط قطر المطر بماء الأنهار وبعد قلوب الفجار من الائتلاف كبعد البهائم من التعاطف وإن طال ائتلافها على أريٍّ واحد " [3].

ومن التشبيهات الرائعة التي تمثل حجة تشرّع طلباً ضمنياً هذا التـــشبيه الـــذي يصور ائتلاف وتقارب قلوب الأبرار باختلاط قطر المطر بماء الأنهـــار ، أمـــا قلـــوب الفجار فهي بعيدة تماماً عن هذا الائتلاف وقد شبهت في هذه الحالة ببعـــد البهـــائم مـــن التعاطف والائتلاف بالرغم من وجودها طوال الوقت في مكان واحد .

ومن الوصايا السياسية التي اشتملت على حِكم مستخدمة التشبيه كأداة لهـــا مـــا أورده تبع ابن زيد وهو يوصي ابنه بقوله : " يا بني إن الملك مصباح ، والملـــك واقـــد

---

[1]- جمهرة وصايا العرب : ص ١٧١

[2]- المعمرون والوصايا : ص ١٣٠-١٣١ .

[3]- جمهرة وصايا العرب : ج٣ ، الوصية : ٧٩ ، ص٢٢٩ .

ذلك المصباح ، فإن حفظه من ريح تطفه ..... أو من مستوقد يخونه دام له ذلك المصباح وسلم له ضياؤه ونوره " [١].

فالتشبيه هنا تقليدي وواضح ، فالحكم مصباح يضيء للحاكم سياساته ويرشده إلى الصواب ، فإذا انطفأ هذا المصباح لم يدم له الحكم وعليه أن يكون حريصاً في المحافظة عليه .

والمتتبع لوصايا العرب بمختلف العصور يجد أن تعاطي الموصين مع التشبيه أخذ جانباً تقليدياً على اختلاف العصور منذ العصر الجاهلي حتى نهاية العصر العباسي بالرغم من تطور علوم الأدب والبلاغة والكلام وتأثر العرب بثقافات أخرى ، ولعل هذا يعود إلى أن أغلب الموصين إنما كان يعنيهم في المقام الأول هو أخذ الموصى به بهذه النصيحة في قالب من الألفاظ والمعاني السهلة والصور البيانية التي تخدم الوصية ، ولذلك لم نجد صعوبة في فهمنا لهذه الوصايا التي تحمل تشبيهاً .

والملاحظ في وصايا القرن الثاني الهجري أن الصور البيانية عامة والتشبيهية خاصة قد جاءت عفوية ، لتوضيح المعنى المراد وإبرازه محسوساً وتحس أنها مألوفة قريبة إلى النفوس ليس فيها جزء غريب تحس أنه دخيل على الصورة " [٢].

ومن الوصايا التي تضمنت التشبيه في تلك الفترة وصية الخليفة المنصور لابنه المهدي يقول فيها : " وانظر هذه المدينة فإياك أن تستبدل بها فإنها بيتك وعزك "[٣] فتشبيه مدينة بغداد ببيته تشبيه يشعره بأهمية المدينة له ، ويجعله يطمئن إليها ويستريح لها ، وكأننا نقرأ تعبيراً حقيقياً .

إلا أن أغلب التشبيهات في تلك الفترة كانت لا تخرج عن الجانب التقليدي المألوف فلا تلمس فيها ابتكاراً ولا تجديداً ففي وصية الرشيد لهرثمة ابن أيمن : " أمره بتقوى الله وطاعته وأن يجعل كتاب الله أماماً " [٤].

---

[١]– جمهرة وصايا العرب : ج١ ، ص ١١٦ – ١٢٤ .

[٢]– أدب الوصايا في العصر العباسي : إلى نهاية القرن الرابع ، أحد أمين مصطفى ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٩٠ ، ص٢٠٦ .

[٣]– تاريخ الطبري : ج٨ ، ص٢٠٢ .

[٤]– تاريخ الطبري : ج٨ ، ص٣٢٧ .

فتشبيه كلام الله بالإمام تشبيه مألوف محقق للهدف ونحن نقف وراء الإمام كل يوم ونتبعه في كل خطواته ، وهذا التشبيه يحث على اتباع أوامر الكتاب اتباعاً كاملاً .

وكان للتشبيه التمثيلي حضوره في الوصايا العربية القديمة فنرى الصور الكلية والخيال التمثيلي على سبيل المثال لا الحصر في كتاب الأدب الصغير " لا يمنعك صغر شأن امرئ من احتباء ما رأيت من رأيه صواباً فإن اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذي استخرجها ... لا يتم حسن الكلام إلا بحسن العمل كالمريض الذي قد علم دواء نفسه فإذا هو لم يتداو به لم يغنه علمه والرجل ذو المروءة قد يكرم على غير مال كالأسد الذي يهاب وإن كان عقيراً والرجل الذي لا مروءة له يهان وأن كثر ماله كالكلب الذي يهون على الناس وأن طوق وخلخل "[1]

نلاحظ هنا " أربعة تشبيهات تمثيلية ، شبه الرأي الصائب يصدر من الرجل الصغير الشأن باللؤلؤة الفائقة يستخرجها غواص صغير الشأن ، وشبه الرجل يتكلم ولا يعمل بالمريض يعرف الدواء ولا يتداوى به وشبه الرجل ذا المروءة يكرم على غير مال بالأسد يهاب (وهو جريح) وشبه الرجل عديم المروءة يهان وأن كثر ماله بالكلب يهون على الناس إن طوق وخلخل " [2].

ومن صور التشبيه التمثيلي التي وردت في الوصايا ، وصية أبرهة ذي المنار [3] لابنه عمر ذي الأذعار ، فلقد قامت الوصية على موضوع رئيس هو الحفاظ على المُلك ، وفيها يقول : « يا بني ، الملك زرع والملك قيّم ذلك الزرّع ، فإن أحسن القيم قيامه عليه في سقياه عند حاجته في اجتلاب مرآب النبات مما ينبته ، وتعاهده إياه بالكرم وحمايته له من المؤذيات من البهائم والطير زكا حصاده وكثر محصوله ، وحمد القيم ، واستكرمت الأرض ، وإن كان القيّم غير متفقد لذلك الزرع ، ولا متيقظ للمثابرة على سقيه وكرمه وحمايته وحفظه ، أوهنه العطش ، وأبيسه الخلا ، وأكلته الطير ، وداسه البهائم ، فلا الزرع زاكٍ ، ولا الأرض معمورة ، ولا القيم محموداً .

---

[1] – الأدب الصغير : ابن المقفع ، بيروت ، مكتبة البيان ، ص٩ .

[2] – أدب الوصايا في الأدب العباسي : ص٢١٢ .

[3] – هو أبرهة ذو المنار بن الحارث بن شداد : من حمير ، من تبايعة اليمن جاهلي ، قيل إنه سمّي ذا المنار ؛ لأنه جعل في الطريق أعلاماً يُهتدى بها ولي الملك بعد أبيه ، ينظر ترجمة في الأعلام ، ج١ ، ص٧٧ .

المتأمل في هذه الوصية سيلحظ أن أبرهة أجرى الصورة على شكل التشبيه التمثيلي ، إذ شبّه الملك الحريص على ملكه بالقيم الحريص على زرعه ، وقد لجأ الموصي إلى أسلوب التفضيل والتدقيق مستعصياً وجوه الشبه بين الصورتين ، معتمداً على بعض التراكيب الشرطية تلازمية ، لتعليق النتيجة بالأسباب الموجبة لها ، والمقدمات المفضية إليها ، كما أن الوصية ذهبت في اتجاهين متقابلين متكاملين إيجاباً وسلباً ، إثراء وتحذيراً ، ترغيباً وترهيباً .

والرأي عندي أن الموصي أجاد في إقناع ابنه باعتماده على التشبيه .

وتضمنت بعض الوصايا تشبيه المحسوس بالمحسوس وهو الغالب في تلك الفترة بعكس تشبيه المعنويات بالمحسوس الذي نكاد لا نجده في أدب الوصايا فمن تشبيه المحسوس بمحسوس قول محمد بن الليث وهو يوصي جعفر بن يحيى بوجوه العناية بالقلم : " فإبره برياً مستوياً كمنقار الحمامة " [١].

ومن تشبيه المعنوي بمحسوس قول الخليفة المهدي لابنه موسى : " لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور " [٢].

فتشبيه القلم بمنقار الحمامة يأتي تشبيهاً تقليدياً أكملت فيه أركان التشبيه ، أما في وصية المهدي ، فبالإضافة إلى تشبيه المعنى بمحسوس بها استعارة تصريحية وسيأتي الباحث على توضيحها في محلها لاحقاً .

وخلاصة القول إن ابن الليث رسم صورة للقلم واضحة كما أرادها أن تكون .

ثانياً : الاستعارة :

من عناصر البيان الذي استعان لها بها العرب قديماً في تناولهم للوصية (الاستعارة) بأقسامها المختلفة وخاصة الاستعارة المكنية فقد تكاتفت الاستعارة مع التشبيه والكناية لتشكل صورة بيانية فنية تؤدي الغرض الذي أريد منه الوصية والهدف الذي يسعى إليه صاحبه لتوضيح وتعميق وتوضيح غايته من وراء الوصية وقد نالت الاستعارة قدراً غير قليل من عناية واهتمام النقاد قديماً شأنها في ذلك شأن التشبيه والمجاز والكناية تعرف الاستعارة بأنها : "استعمال العبارة على غير ما وضعت له في

---

[١]– العقد الفريد : ج٤ ، ص١٩٥ .

[٢]– المرجع السابق : ج١– ص٣١

أصل اللغة على جهة النقل ، وكل استعارة تتضمن معنى التشبيه وليس كل تشبيه استعارة وهي من باب المجاز " [١].

ويقول ابن رشيق : الاستعارة أفضل المجاز ..... وليس في حلى الشعر أعجب منها وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ، ونزلت موضعها "[٢]

والاستعارة عبارة عن فكرتين لشيئين مختلفين ، تعملان معاً خلال كلمة أو عبارة واحدة تدعم كلتا الفكرتين ، ويكون معناها محصلة لتفاعلها .

ولذا تُعد في إطار النظرة الفنية « رباطاً داخلياً يعمل – عن طريق الخيال – على جمع عالمين متغايرين غالباً ودمجهما معاً ، وتصييرها عالماً ثالثاً موحداً »[٣] .

والاستعارة في سياق النظرية الانفعالية – بنية حية يفصح بها المبدع عن مشاعره العميقة وأحاسيسه الخفية ، التي ربما يعجز اللفظ المجرد عن الإبانة عنها ، لذا فهي تنطوي على طاقات عاطفية ثرية تجسد الواقع النفسي والشعوري لدى مبدعها ، وتكشف عن عالمه الداخلي وما يدور في صدره من خواطر وأحاسيس « فالاستعارة تمزج بين الشعور واللاشعور ، ولما كان اللاشعور هو مثوى الانفعالات الإنسانية ، فإن الاستعارة تقوم بعملية تنشيط القوى الوجدانية بما تحمل من هذه الانفعالات ، وبما تملك من مساعدة على استيعاب العمل الفني ، ومن ثم تكشف عن طبيعة الإنسان الحقيقية بما هي صدى اللاشعور » [٤].

ومن الوصايا التي تضمنت استعارات عديدة وصية الخليفة المأمون لأبنائه والتي يقول فيها : " ..... أعظم الناس سلطاناً من تسلط على نفسه فوليها يحكم التدبير وملك هواه فحمله على محاسن الأمور وأشرب معرفة الحق فأنقاد للواجب فوقف عند الشبهة حتى استوضح مقر الصواب فتوخاه ورزق عظيم الصبر فهان عليه

---

[١]– المعيار في نقد الأشعار : أبو عبد الله جمال الدين الأندلسي ، تحقيق : عبد الله الهنداوي ، القاهرة ، مطبعة الأمانة ، ط١ ، ١٩٨٧ ، ص٨٩ .

[٢]– العمدة : ج١ ، مصدر سابق ، ص٢٦٨ .

[٣]– تشكل الخطاب النقدي (مقاربات منهجية معاصرة) عبد القادر الرباعي ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط١ ، ١٩٩٨ ، ص ٥٣ .

[٤]– الاستعارة في النقد الأدبي الحديث ، يوسف أبو العدوس ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط١ ، ١٩٩٧ ، ص٢٤٩ .

هجوم النوائب تأميلاً لما بعدها من عواقب الرغائب وأعطى فضيلة الصمت محبس غريب لسانه " [1].

فالاستعارة المكنية جاءت واضحة في أكثر من فقرة فيستخدم الاستعارة المكنية ليشخص بها ظواهر معنوية ويبث فيها الحركة والصوت لغرض التجسيم والتجسيد تجد هذا واضحاً في قوله – فهان عليه هجوم النوائب – جمع نائبة – وهي المصيبة التي جعلها كالإنسان المقاتل الذي يبدأ بالهجوم وقد صرف المشبه به وهو المقاتل وجاء لشيء من لوازمه وخصائصه وهي الحركة ليزيد بها النصيحة قبولاً لدى ابنة ، فيحذر من الشبهة وعواقب الرغائب وبذلك جاءت الاستعارة لتحقق الهدف الذي أراد أن يوصله المأمون لابنه .

ومن الصور التي جمعت تعبيرات جميلة ممزوجة بالتشبيه دون تكلف لتأكيد المعنى وتجسيمه قول ابن العميد لأبي عبد الله الطبري : " وأركب في الخدمة طريقة تبعدك من الملال " [2].

شبه الطريقة التي يتبعها في معاملة الرؤساء بداية يركبها على سبيل الاستعارة المكنية والصورة والتعبير هنا غير مطروقين ، وهذا دليل على عنايته بالتصوير حيث حشد بعض الأدباء صوراً وتفننوا في تكوينها ومن هؤلاء ابن العميد الكاتب الكبير الذي اشتهر بالأساليب غير المعقدة واهتمامه بالمعنى واللفظ معاً .

ومن الاستعارات التي جنحت إلى المبالغة قول أبي سعيد الخراز : " أن ترجع إلى نفسك فتذيبها بالطاعة وتفارقها وتميتها بالمخالفة وتذبحها باليأس فيما سو الله " [3].

فمثل هذه الاستعارات تجنح إلى المبالغة في التصوير وتعميق فكرة الموصي فعند حديثه عن النفس وأحجامها عن فعل الشر استخدم كلمات تذيبها ، وتفارقها ، وتميتها وتذبحها وقد حشد هذه الكلمات التي توحي بالعنف والقوة في كبح جماح النفس للتأثير على الموصى به .

---

[1] – خلاصة الذهب المسبول مختصر من سبر الملوك : مرجع سابق ، ص١٣٩ .

[2] – زهر الآداب : للحصري ، ج١ ، ص١٥٢ .

[3] – اللمع : لأبي نصر السراج الطوسي ، تحقيق عبد الحليم محمود طه وعبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٠ص٣٣٤ .

والمتتبع لأدب الوصايا قديماً تطالعه بعض الاستعارات المتطورة حيث يبرز الموصون بعض الصور القديمة في ثوب جديد كما يبتكرون صوراً جديدة يربط فيها خيالهم بين أجزاء متباعدة في الواقع ومن إبراز الصور القديمة في ثوب جديد قول أبي بكر الخوارزمي : " لا تزاحم الفلك الدوار ، ولا تناطح الأقسام والأقدار ، ولا تجلس على طريق السيل الراعب ولا تطعن في نحر القضاء الغالب "[١] .

والتناطح قديم ولكن الكاتب هنا يتخيل الرجل والقدر يتناطحان وكذلك يوصي الموصون بعدم معاندة القدر والخوارزمي هنا يشخص القدر ويجعل له نحراً يطعن فيه الإنسان وهذا عرض للصور القديمة في ثوب جديد .

ومن الاستعارات الجيدة ما جاء في وصية الخليفة المأمون إلى عمر بن مسعد قائلاً : " ا عمر نعمك بالعدل فإن الجور يهدمها " [٢].

وهي وصية في غاية الإيجاز وتضم صورتين رائعتين ، فقد شبه النعمة ببناء يعمره وشبه الجور بمعول أو بشخص يهدم وهما استعارتان مكنيتان ، والنعمة والجور أمور معنوية وهذا التجسيم أو التشخيص يؤدي إلى إبراز الأثر ويدفع إلى الحرص على الوصية .

ومن الاستعارات التمثيلية [٣] ما نراه في وصية المأمون لولده موصياً " استشيروا ذوي الرأي والتجربة والحيلة ، وتحملوا ما يغلطون من قول ويكشفون من عيب ، فإن من جرعكم المرارة لشفائكم أشفق ممن أطعمكم الحلاوة لاسقامكم "[٤].

وفي الجملة الأخيرة استعارتان تمثيليتان ، فقد شبه الشخص الذي يقدم النصيحة المؤلمة بشخص يسقي آخر جرعة مرة ، وشبه الشخص الذي يقدم الكلام اللين الذي يوافق هوى النفس بقصد التضليل بشخص يقدم حلاوة مسمومة وربط الموصي بين الاستعارتين التمثيليتين .

---

[١]– رسائل الخوارزمي ، مرجع سابق ، ص٧ .

[٢]– العقد الفريد : ج٤ ، مرجع سابق ، ص٢١٥ .

[٣]– الاستعارة التمثيلية : هي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من امرين أو أمور بأخرى ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه – ينظر– الإيضاح في علوم البلاغة ، للقزويني ، جلال الدين محمد ، بيروت ، مكتبة الهلال ، ط٢ ، ١٩٩١ م ، ص٢٦٠ .

[٤]– تحفة الوزراء : للثعالبي ، مرجع سابق ، ص ٨٧ .

كما نجد الاستعارة في وصية عبد الله بن الحسن بن علي يوصي بها ابنه محمد النفس الزكية : " وأعلم أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائماً ، ووجدت هواك يقظان ، فإياك أن تستبد برأيك ، فإنه حينئذ هواك ، ولا تفعل فعلاً إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا ترديك ،وأن نتيجته لا تجنى عليك " [1].

فالاستعارة مكنية في قوله : وهو يتحدث عن الرأي السديد – إذا احتجت إليه وجدته نائماً – كذلك في قوله –وجدت هواك يقظان ، فالنوم واليقظة من صفات الإنسان أو الكائن الحي عموماً وليست لأشياء معنوية مثل الرأي والهوى وسر جمال هذه الاستعارة التجسيم كذلك الاستعارة في قوله وهو يتحدث عن آفة الاستبدال بالرأي عندما وصف نتيجته التعقل بقوله – لا تجنى عليك .

ومن الاستعارات الجميلة ما جاء في وصية أكثم بن صيفي المشهورة الموجهة لابنيه والتي اشتملت على كثير من الحِكم حيث جاء فيها : " ..... التقدم قبل التندم ، أن أصبح عند رأس الأمر أحب إليَّ من أن أصبح عن ذنبه لم يهلك من مالك ما وعظك " [2].

وفي الوصية استعارة تصريحية فقد وضع للأمر رأس وذيل ليجعله كالكائن الحي وأراد من خلال هذه الاستعارة أن يرسل إلى ابنه بنصيحة أن يكون في مقدمة كل أمر حسن والدليل على ذلك قوله : التقدم قبل التندم وهذه الوصية شملت عدداً من الصور البلاغية والمحسنات البديعية التي سنعود إليها لتوضيحها عند تناول المحسنات البديعية .

ثالثاً : الكنـــــــاية :

من أنواع المجاز التي تسهم في صنع الصورة الفنية (الكناية) وحقيقتها أنها « كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز يوصف جامع بين الحقيقة والمجاز » [3].

ويعرفها عبد القادر الجرجاني « ... أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه من الموجود فيوحي به إليه ، ويجعله دليلاً عليه » [1].

---

[1]– زهرة الآداب : مرجع سابق ، ص٢ .

[2]– المعمرون والوصايا : ص ١٤–١٥ .

[3]– المثل السائر : ابن الأثير ، ج٣ ، ص٥٢ .

والكناية أبلغ من التصريح وأجمل من الإيضاح وهي من أصل الفصاحة وشرط من شروط البلاغة ومن دلائل بلاغة الأديب واحترامه لذوق المتلقي وعقله وفكره ، واعترافه بقدرته على الفهم » [٢].

وإذا توسعنا في بلورة القيمة الفنية للتعبير الكنائي ، فإننا نراه في قدرته على إعطاء إشارات وافرة بجانب الدلالة الإشارية التي تبعد التركيب اللغوي عن المباشرة » [٣].

وعادة ما يكون "التجاور" بين طرفي الصورة الكنائية هو المسوغ للتحول الدلالي من معناها الظاهر إلى معناها الباطن وينشأ هذا التجاور نتيجة التلازم العرفي بين طرفي الصورة الكنائية في ضوء تقاليد المجتمع وأعرافه الثابتة ، سواء أكان هذا العرف عاماً لا تختلف دلالته باختلاف العصور والبيئات . أم خاصاً تتغير دلالته بتغير الثقافات والأزمنة ، فالكناية « صورة شكلية تحل فيها مفردة مكان أخرى لأن بينهما علاقة تجاور ، ويأتي النقل لا بواسطة المشابهة كما في الاستعارة ، بل بواسطة التقارب الموجود بينهما في مجال التجربة .

وللكناية دور فعال في إقناع المتلقي وتأكيد المعاني المطروحة في ذهنه مقرونة بالبرهان المنطقي ، ومشفوعة بالدليل المادي المحسوس ، كما أنها تمثل إلى جانب هذه الوظيفة –وسيلة إقناع فني ، من خلال قدرتها على تصوير المعاني المجردة وتجسيدها في مشاهد محسوسة يتمثلها المتلقي امثلاً حسياً يستثير عواطفه ، ويوقظ شعوره ، ويحرك خياله ، ولذا تشارك الكناية الاستعارة في إبراز المعنى وإنتاج الدلالة ، عن طريق تدخل العقل في استخلاص اللازم من الصياغة ، إذ كلاهما بمثابة عملية إثبات وتقرير ، وليس معنى الكناية أننا زدنا في ذات الدلالة ، بل أن الزيادة تكون في إثبات المعنى ، وليست المزية في قولهم : " جم الرماد " أنه دلَّ على قرى كثيرة ، بل إن المزية في إثبات كثرة القرى » [٤].

---

[١]– دلائل الإعجاز : تحقيق : محمود محمد شاكر ، دار المدني جدة ، ط٣ ، ١٩٩٩ ، ص١٦ .

[٢]– الصورة الفنية في شعر دعيل الخزاعي : علي إبراهيم أبو زيد ، المعارف القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٢ ، ص٤٣٩ .

[٣]– فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور : رجاء عبيد ، دار المعارف ،الإسكندرية ، ط٢ ، ١٩٩٨، ص٤٣٩ .

[٤]– جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم ، محمد عبد المطلب ن الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، القاهرة ، ط ١٩٩٥ ، ص٢٥٣ .

والمتتبع لوصايا العرب قديماً يجد أن الصورة الكنائية من أكثر الصور البيانية استخداماً وذلك لأن درجة الفهم لمدلولات اللفظة والعبارات بشكل عام لدى العربي وقدرته على فهم الرموز والإشارات كانت كبيرة ، فالعرب أهل فصاحة وبيان .

ومن الوصايا التي كان للكناية فيها نصيب وصية عبد الله بن معاوية لأبي مسلم الخراساني « فإن الناس من حوضك رواء ونحن منه ظماء » [1].

وهذا كناية من الكنايات المطروقة والتقليدية ، فالري من الحياض والظمأ معهودان منذ الجاهلية ، والكناية في هذه الوصية عن تمتع الناس بالخير في ذلك العهد ، وحرمان العلويين منه » .

ومن الكنايات أيضا ما ورد في وصية الرشيد للأحمر النحوي مؤدب ابنه حيث يقول له « فصَيِّر يدك عليه مبسوطة » [2]. كناية عن السيطرة عليه .

[1] – البيان والتبيين : للجاحظ ، ج٢ ، ص٨٥ .

[2] – مروج الذهب : أبو الحسن بن الحسين ، تحقيق ، محي الدين عبد الحميد ،ط٢ ، المكتبة التجارية الكبرى ، ج٢ ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص٨٥ .